الاسلام والقوميات (١)

الشريعة الاسلامية ليست شريعة قومية خاصة بالعرب وليست الامة الاسلامية امة عنصرية كما يتهمها اعداؤها ..

من الحقائق الثابتة عند ابناء البشر، المرتكزة فى اذهانهم ارتكازا لا يقبل التشكيك هو انهم جميعا ينتهون الى اب واحد وام واحدة، هذه الحقيقة لا يختلف حولها الموحدون والملحدون، ولا تتضارب فيها آراء أتباع الانبياء والفلاسفة، وحتى اولئك الذين يقولون بنظرية التطور الداروينى لم يحدثونا فى يوم من الايام عن اصول متعددة لبني البشر، ولم يحاولوا كما جرت عادتهم ان يستدلوا بهياكل وبقايا حيوانات اخرى ولو كان من قبيل القردة العالية على انها تمثل اصولا متعددة لابناء الانسان ، فأبناء الانسان كلهم يعودون لاب واحد وام واحدة، هذه الحقيقة لا يدور حولها جدل عند الناس، كيف اذن نشأت عندهم افكار القومية والعنصرية والاقليمية، وجعلتهم يتفاخرون ويتضاربون ربما بالسيف والمدفع فى سبيلها ؟

لا شك ان تطاول الاحقاب على بنى البشر أنساهم تذكر وسائل الرحم الاولى، انساهم تذكر صلة الاخوة بينهم، وجعلهم يتشبثون بأجداد وآباء أقرب اليهم من آدم (ع) حتى لو إضطروا فى ذلك الى خلق أب وهمى أو جد خرافى ينسبون أنفسهم اليه، وربما كان لتضارب مصالح بعض الحكام وبعض الزعماء دخل كبير فى ذلك .

فى القرون السالفة قبل الاسلام، كانت الدنيا بأسرها الا فى فترات قليلة تعيش حياة الحرب، وحياة الخصام بين الفئات المختلفة من بنى البشر على معان تافهة من أهمها معنى العنصرية، والدول التى كانت تقوم وتشاد، كانت تشاد وتؤسس على معنى العنصرية، الفراعنة كانو يعتقدون بأن سائر امم الارض كلهم اقل درجة من المصريين، لا مانع لديهم من قتل من يسمونهم بالاسيويين، لا مانع لديهم من إشادة الاهرام بسخرة أولئك الذين يسوقهم النصيب الى دخول مصر ممن لم يكونوا من اهلها، على ان الحياة نفسها عندهم لم تكن على قدم المساواة بين ابناء القبيلة الواحدة لا شك ان الفراعنة كانوا يرون ان السلالة التى نزلوا منها اكثر رقيا واعظم قدسية من سائر السلالات المصرية وان دمهم النقى الطاهر هو الذى يجعل لهم الحق فى سياسة البلاد وحكمها،

الاشوريون والكلدانيون والسومريون كل اولئك الاقوام لم يهدأوا لحظة فى تاريخ حياتهم، بل فى تاريخ دولهم التى قد تستمر قرونا، لم يهدأو لحظة من الحرب وسفك الدماء مع الاقوام الآخرين بدون هدف سام ومصلحة تعود الى البشرية، وإنما من اجل فرض سيطرة عنصر على عنصر، الفرس انفسهم كانوا يعتقدون انهم افضل شعوب الارض، الاكاسرة افضل بنى الانسان، وهكذا الرومان واليونان.. جميع هذه الدول ليس لها من معنى وليس لها من هدف ولا أساس تعتمد عليه فى تبرير وجودها الا انها تنبثق من عنصر يدعى انه يفوق سائر بنى البشر رقيا وتقدما وطيبة وطهرا، حتى اتباع بعض الاديان حاولوا او عملوا على تحريف الكتب المقدسة التى انزلها الله على رسله ليعطوها معنى قوميا او عنصريا .

اليهود حرفوا التوراة وادعوا لأنفسهم انهم شعب الله المختار، وان جميع البشر، انما خلقوا ليكونوا عبيدا لأبناء اسحاق، وان كل ما عند الناس فهو لهم مباح، واذا كانوا يعترفون بنوع استقلالية لبنى إسماعيل كما تقول التوراة « واما انت يا إسماعيل فيدك على اخوتك، ويد إخوتك عليك » اذا كانوا يعترفون بنوع استقلالية لبنى عمهم اسماعيل فانهم يعرفون ان بنى اسماعيل لم يخضعوا لهم .

النصارى او مؤلفوا الاناجيل حاولوا ايضا ان يصبغوا الديانة التى انزلها على السيد المسيح صبغة قومية عنصرية تنحصر فى شعب واحد « إنما ارسلت لخراف اسرائيل الضالة » على ما فى لفظ انما من الحصر .

هكذا كانت الدنيا قبل ظهور الدعوة الاسلامية على يد الرسول الاعظم (ص). جاء الاسلام فدعا الى نبذ العصبية والعنصرية، وذكر الناس بأنهم جميعا خلقوا من شىء واحد « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » « إنا خلقنا الانسان من نطفة ثم جعلنا النطفة علقة، ثم جعلنا العلقة مضغة، ثم جعلنا المضغة عظاما ثم كسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين ..»، فجميع الناس لافرق بين من يدعى الشرف والرفعة لنفسه وبين من يعترف لذلك بأنه اشرف منه، كلهم جاءوا فى الخلق من هذا الطريق » كلهم جاءوا من الارض والماء، وكلهم كانوا فى صلب أب واحد وأم واحدة، فلا معنى لكل ما يدعى من تفوق عنصر على عنصر، لأنه فى الحقيقة لا يوجد الا عنصر واحد وهو عنصر التراب ممتزجا بالماء .

جاء الاسلام بمبادىء اساسية لنبذ العنصرية، ودعودة الناس الى الوحدة كافة، فهم من حيث الخلقة من اصل واحد، ومن حيث الوجود على الارض جاءوا بطريق واحد، من أب واحد وأم واحدة « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجلعناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم .. » فالناس كلهم ابيضهم واسودهم، قويهم وضعيفهم، متعلمهم وجاهلهم.. كلهم يرجعون الى آدم والى حواء، وهذا هو سبب وجودهم على الارض. ودعا الى عبادة رب واحد « الله لا أله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ..» « واحد لا شريك له فإذا ليس هناك ارباب متفرقة حتى يحتاج بنوا البشر الى التفرق بسب تفرق الالهة، « قل هو الله احد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوءاً احد » فهو لا شريك له ولا شبهة ولا نظير ولا معين فى خلقه. وانزل شريعة واحدة هى شريعة الاسلام من اول يوم نزل فيه البشر الى الارض صاحبتهم هذه الشريعة، ومشت معهم نبيا بعد نبى ووصيا بعد وصى، حتى جاء دور نبينا محمد (ص) لم يتوقف سير هذه الدعوة لحظة واحدة، ولم تتخلف عن مواكبة

الاستعمار استغل ظلم الدولة العثمانية للمسلمين كسلاح للتفرقة بين صفوف الامة لاضعافها ..

المحاضرة التاسعة والثلاثون لفضيلة الشيخ سليمان المدنى

البشرية آناً ما، « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما أختلف فيه الا الذين اتوه ..». هذا الاختلاف فى الدين انما نشأ عند اتباعه بغيا بينهم، وتعصبا على الحق وعنادا عليه، فهو سبحانه انزل شريعة واحدة لا تتغير فى اساسها، ولا تتبدل فى اصولها، وان إقتضت ضرورات الازمان واختلاف الاحوال ان ينسخ حكم جزئى او يشرع حكم فرعى. هذه الدعوة فى الحقيقة دعوة عالمية، اممية، وليست دعوة عنصرية أو قومية، الامة التى قامت على أساس من هذه الدعوة ليست امة قومية عنصرية، العرب الذين حملوا مشعل الاسلام الى بقية شعوب الارض، وسائر ابناء الانسان، ليسوا الا بداية لتكوين هذه الامة، فالشريعة الاسلامية ليست شريعة قومية خاصة بالعرب « إنا أرسلناك رحمة للعالمين.. » فالآيات القرآنية كلها تؤكد على ان هذه الدعوة هى دعوة لكل بنى الانسان، واذا كان رسولها الاعظم (ص) قد إختاره الله من بين العرب ولا شك ان فى ذلك تكريما لهم ان اتبعوه، لكن ذلك لا يعنى ان تكون رسالة عربية، او رسالة قومية عنصرية، ولا يعنى ان الامة التي قامت على اساس من هذه الدعوة هى امة عربية أو أمة عنصرية، الدليل على ذلك واضح فى تاريخ الاسلام نفسه، ففى بداية الفتوح لم نجد العرب يدعون لأنفسهم بأنهم أفضل من سائر المسلمين، ولم نجد قادة الاسلام وحملته، النبى (ص) والخلفاء من بعده ان العرب افضل من غير العرب، فقامت الدولة الاسلامية بخليط من الناس، فهناك صهيب الرومى وبلال الحبشى وسلمان الفارسى وغيرهم ممن ليسوا بعرب، كلهم ساروا على مسار الرسول الاعظم (ص) لا فرقة بينهم ولا إختلاف ولا تبجح بالاباء ولا بالانساب، ومضت الامة فى مسيرتها هذه حتى إبتدأت تنحرف عن جادة الصواب وحتى اخذ التحلل يدب الى واصال المنظمة الاسلامية بفضل قيام حكومات الواقع التي ادت الى تعطيل اجزاء كبيرة من الشريعة الاسلامية. هذا التحلل الذى دب فى صفوف الامة الاسلامية افقدها وعيها الحقيقى برسالتها التى كلفت بحملها ، اخذت تبتعد عن طبيق تعاليمه سبحانه وتعالى يوما بعد يوم، فوجد فيها ظالم ومظلوم، وقوى وضعيف، ومستضعف، فابتدأت الافكار الجاهلية تعود الى اذهان المسلمين من جديد، وبرزت فى ايام بنى العباس الاولى قضية الشعوبية والقبائلية مزدك ومانى وزرادشت وغيرهم من سائر الملاحدة استغلوا ضعف الامة وتخليها عن جزء كبير من تعاليم دينها ليبثوا بين الناس الفرقة وليدعوا الى العصبية، فقامت قائمة الشعوبية على ان كل شعوب الارض افضل من العرب .

هذه الدعوة الضالة لم تعالج بالطريق الشرعى وإنما قوبلت بدعوة ضلال اخرى هى ان العرب افضل من سائر الشعوب، فتنة الشعوبية والقبائلية فى الحقيقة دفعت الناس الى المعانى العنصرية او الى الفكر العنصرى من جديد، وأشعلت بين المسلمين نارا بقى اوزارها اكثر من قرنين، واخذ كل مسلم يعادى المسلم الآخر لأنه تركى أو ديلمى او فارسى او غير ذلك، كما يعادى هذا الشعب او ذلك الشعب من شعوب الاسلام، ومنذ ذلك الوقت (من قيام فتنة الشعوبية والقبائلية ونيران العنصرية) لم تخمد فى نفوس أتباع الاسلام جهلا منهم بتعاليم دينهم او تحللا من الانقياد إليه. وجاءت دولة الاتراك المعروفة بالدولة العثمانية لتزيد فى الطنبور نغمة، تفرق بين الناس وتفرق بين السكان فا لاتراك سادة الامة يمكن ان يصل المواطن الى مستوى معين فى الدولة ثم يقف لأنه ليس تركى. الامر الذى جعل الدول الاخرى تستغله وتستعيد منه كما سنرى فى نهاية المطاف، هذا بالنسبة للقومية فى الشرق الادنى والاوسط .

أما اوروبا فبعد سقوط الدولة الرومانية، وسيطرة الكنسية البابوية على مقاليد الحكم فى اوروبا لم تكن هناك افكار قومية بين الاوروبيين، وإنما إنبعثت الافكار القومية عند الشعوب الاوروبية حين تمكن النورمانديون من إعلان عصيانهم للبابا، وتأسيسهم دولة بريطانيا مستقلة عن سلطان الكنيسة، ثم جاءت الثورة الصناعية الكبرى التى أدت الى ظهور دول ومجتمعات إقليمية، وأدت مصالح الزعماء ومصالح الاباطرة والملوك الى اعلان عصيان البابا، واستقلال كل واحد منهم بصقع من اصقاع المسيحية ليحكمه، عندئذ ظهرت الدولة الاقليمية او الدولة القومية فى القارة الاوروبية، هذه الثورة فى الواقع لم تمهد للاوروبيين الدولة القومية إنما أوصلتهم الى درجات كبيرة فى التقدم الصناعى والقوة المادية بحيث طمعوا فى اسقاط الدولة العثمانية، فماذا يستغلون ؟ يستغلون الظلم العثمانى والتمييز العثماني بين الشعوب الاسلامية ليشعلون نار الفتنة بين الاتراك والعرب وبين الاتراك والافريقيين وبين الاتراك والمسلمين الاوروبيين ونشر الافكار القومية بين الشباب والمثقفين على اساس ان هذا الظلم انما نشأ ووجد بسبب الاتحاد مع الاتراك فى دولة واحدة، ولا بد ان يكون لكل شعب من شعوب الاسلام منظمته الخاصة وان تكون له قيادته العليا المستقلة وأنه لا مانع ان يتعاون مع غيره من شعوب الاسلام وان يتعاون مع سواه من دول المسلمين ولكن لا يتحد معها فى قيادة ولا يندمج معها فى منظمة .

هذه الفكرة الجديدة للقومية إنتشرت بين ابناء المسلمين، وجعلها الاستعمار سيفا ليحارب به الافكار الاسلامية التى تدعو الى دفع ظلم العثمانين والى التوحيد بين صفوف أبناء الامة، ولقد إتفق الشرق والغرب على استغلال هذا السلاح، فالمعسكر الغربى استغل فكرة القومية لغرضين اسقاط الدولة العثمانية والحيلولة بين الشعوب الاسلامية وبين الانتماء الى المعسكر الشرقى بعد قيام الشيوعية، ولينين نفسه وقد كان يطمع فى اصقاع كثيرة من البلاد الاسلامية، ويخشى من قيام وحدة اسلامية كبرى تحرر الشعوب الاسلامية الخاضعة للاستعمار الروسى، اكد فى وصاياه على انه يتبنى بالنسبة للأقطار المختلفة تشجيع الافكار القومية، وإنما يقصد بالاقطار المتخلفة اقطار الشرق الاوسط والادنى .

يتبع فى العدد القادم